

الحتمية القيمية والحتمية الديالكتيكية لمواجهة الرداءة الإعلامية - مقارنة تحليلية -

الأستاذ: جمال زاوي

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدينة.

ملخص:

تعتبر الحتمية القيمية الإعلامية التي ظهرت على يد البروفيسور الجزائري عبد الرحمن عزي نظرية رائدة في مجال الفكر القيمي الهادف إلى بناء الفرد والمجتمع على حد سواء، وفي المقابل يمكن اعتبارها سلاحا قيميا يتم تسليطه على الرداءة الإعلامية التي باتت تعرف انتشارا رهيبا في مختلف الوسائل الإعلامية، وسنحاول في هذه المقاربة التحليلية تبيان كيفية الاستعانة بهذه النظرية لمواجهة الرداءة الإعلامية، كما نستعين أيضا بنظرية الحتمية الديالكتيكية التي جاء بها المفكر الألماني كارل ماركس، حيث تقوم على مبدأ صراع الثنائيات المتناقضة، بالإضافة إلى استحضار الكيمياء التجريبية للمواجهة إمبراطورية الرداءة الإعلامية. الكلمات المفتاحية: الحتمية القيمية- الحتمية الديالكتيكية- الرداءة الإعلامية- الكيمياء التجريبية.

Résumé

Le déterminisme valeur des medias est une théorie très importante, a apparu d'après le professeur algérien **Abderrahmane Azzi**, elle spécialise au domaine de la pensée morale, aussi, est un arme qu'on peut utiliser contre la medias médiocratie qui se trouve par une manière horrible dans la medias. Ensuite, dans cet approche analytique, on va expliquer comment utilise-t-on cette théorie pour affronter la medias médiocratie. En plus, on utilise le déterminisme dialectique qui a apparu d'après **Karl max**, et la chimie expérimentale pour lutter contre l'empire de médiocratie.

Mots Clés : déterminisme de valeur- déterminisme dialectique- medias médiocratie- chimie expérimentale.

مقدمة

الرداءة الإعلامية... علامة تجارية أصبحت تميز العديد من الوسائل الإعلامية باختلاف أنواعها، من المكتوبة إلى السمعية فالبصرية، كلها تعرض نفس البضائع الاستهلاكية، والسلع الشعبية الهابطة، والثقافة الجماهيرية المبتذلة، والتي تصب في قالب واحد لا يكاد يخرج من دائرة الرداءة، بعيدا كل البعد عن الريادة الإعلامية المتمسكة بالقيم والمبادئ.

في هذه المقاربة التحليلية نستعين بنظرية الحتمية القيمة للتصدي لهذه الرداءة، التي لا يمكنها الصمود أمام هذه الأخيرة التي تعجل فناءها، خاصة إذا علمنا أنه كلما كانت محتويات وسائل الإعلام بعيدة عن القيم، كلما كانت تأثيراتها سلبية، وانعكاساتها خطيرة، متحولة بذلك إلى معاول لهدم الفرد بصفة خاصة، وتدمير المجتمع بصفة عامة.

كما نستعين بسلاح آخر لا يقل أهمية عن سابقه، لم يظهر في بلاد عربية، ولا على يد مفكر مسلم، وذلك بهدف الموازنة في الطرح، وإعطائه بعدا عالميا، وإخراجه من دائرة المحلية، إنها الحتمية الديالكتيكية التي تقوم على مبدأ صراع الثنائيات المتناقضة، في مسار جدلي ينتهي بانتصار متغير جديد كان نتيجة حتمية لتزاوج المتناقضات، ونحاول تطبيق هذا النموذج النظري على الرداءة الإعلامية التي لا تقاوم كثيرا أمام هذا الأخير.

ليس هذا فحسب، بل سنستعين أيضا بالكيمياء التجريبية بمعادلاتها المنطقية، وعناصرها الطبيعية، التي تتفاعل وفق منهج سليم يضمن استمرار الحياة من جهة، وبناء الحضارة من جهة أخرى، وبعد إحداث تغيير طفيف في العناصر المتفاعلة في تلك المعادلة، سنثبت -كيميائيا- انهيار إمبراطورية الرداءة الإعلامية.

و في الأخير ندعم أطروحتنا بأدلة ميدانية لا تزال شاهدة على انهيار الرداءة الإعلامية، باختلاف الأنظمة التي تتواجد فيها، وتنوع المجتمعات والثقافات التي تعيش في أحضانها.

لمحة مفاهيمية حول القيم بين اللغة والاصطلاح

تعددت معاني القيمة في المعاجم والقواميس اللغوية حيث أن "القيمة: جمعها قيم، ولها معنيان الأول يعني ثمن يعادل المتاع، أما الثاني فمعناه درجة الأهمية النسبية له، ومعنى ثالث مؤداه أن قيمة الإنسان تعني قامته (مسعود جبران، 2005: 722) ¹ والقيمة واحدة القيم، وقوم السلعة تقويما، وأهل مكة يقولون استقامة السلعة وهما بمعنى واحد. والاستقامة الاعتدال، يقال استقام له الأمر. وقوله تعالى: (فاستقيموا إليه) أي في التوجه دون آلهتهم، وقوم الشيء تقويما فهو قويوم أي مستقيم. وقولهم: ما أقومه شاذ. وقوله تعالى: (وذلك دين القيمة) إنما أنثه لأنه أراد الملة الحنيفة (محمد بن أبي بكر الرازي، 2007: 254) ².

إن الملاحظ لهذه المعاني يجدها تتأرجح بين الثمن والأهمية تارة، وبين الاستقامة والاعتدال تارة أخرى، وذلك واضح وجلي في معنى الآية الكريمة التي مؤداها أن هذا الدين إنما هو دين الاستقامة والاعتدال الذي لا يشوبه اعوجاج ولا تطرف، وكل القيم المستقامة من هذا الدين تحمل هذه الخصائص السامية.

أما اصطلاحا فيمكن تعريف القيم بأنها: "المعتقدات حول الأمور والغايات وأشكال السلوك المفضلة لدى الناس؛ توجه مشاعرهم، وتفكيرهم، ومواقفهم، وتصرفاتهم، واختياراتهم، وتنظم علاقاتهم بالواقع والمؤسسات والآخرين وأنفسهم والمكان والزمان، وتسوغ مواقفهم وتحدد هويتهم ومعنى وجودهم، أي تتصل بنوعية السلوك المفضل بمعنى الوجود وغايته (ماجد الزيود، 2006: 23) ³.

أي أن القيم عبارة عن كل ما يحمله الفرد (موروث أو مكتسب) من معتقدات وأحكام وأفكار ومعاني واتجاهات ومعايير تنعكس على سلوكياته، وتظهر في تصرفاته، وتصطبغ على مواقفه، وتؤطر علاقاته مع نفسه وخالقه من جهة، وتنظم علاقاته مع غيره، وتضبطها في إطار مرجعي من جهة أخرى.

الحتمية القيمية ... قاصمة الرداءة الإعلامية

تعود جذور نظرية الحتمية القيمية الإعلامية إلى المفكر الجزائري البروفسور عبد الرحمن عزي، الذي صرح أنه: "بدأ فعليا تحديد مسار نظريته

بتقديم النظرية الاجتماعية الغربية الحديثة وتكييفها مع الواقع الجديد وعلاقتها بالاتصال في كتابه: (الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الإعلامية الاتصالية: بعض الأبعاد الحضارية). أما عن تسميتها بـ: (الحتمية القيمية في الإعلام) فيعود الفضل في ذلك إلى طالبه وزميله الآن في جامعة الشارقة الأستاذ الدكتور نصير بوعلي (باديس لونيس، 2012: 95)⁴.

في هذه المقاربة سنسلط الضوء على التأثير الذي تحدثه وسائل الإعلام في الجمهور بصفة خاصة والمجتمع بصفة عامة، والذي يقول عبد الرحمن عزي بشأنه: "إن التأثير يكون إيجابيا إذا كانت محتويات وسائل الإعلام وثيقة الصلة بالقيمة، وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا. وبالمقابل، يكون التأثير سلبيا إذا كانت محتويات وسائل الإعلام لا تتقيد بأية قيمة أو تتناقض مع القيمة، وكلما كان الابتعاد أكبر كان التأثير سلبيا أكبر (نصير بوعلي، 2007: 94)⁵.

تأسيسا على ما سبق، فإنه كلما ابتعدت محتويات وسائل الإعلام عن التمسك بالقيم أو عملت على عرض محتويات تتنافى مع القيم السائدة في المجتمع الذي تتواجد فيه، كان تأثيرها سلبيا، وعملت على الخروج من دائرة الريادة، والولوج إلى مستنقع الرداءة، ومن أبرز التأثيرات السلبية التي تحدثها هذه الوسائل "تبرير الوضع القائم، ويتضمن ذلك توظيف التراث والتاريخ والخطاب الإعلامي والقانون، وكذا اقتلاع القيم من سياقاتها في مسار تثبيت الوضع وتكريسه في خدمة مصالح ضيقة ... وما عمدت إلى إضافته وسائل الاتصال الحديثة هو توسيع دائرة التبرير بين المحلي والدولي (عبد الرحمن عزي، 2013: 30)⁶.

كما تعمل وسائل الإعلام على فرض نوع من "المراقبة الذاتية والاجتماعية، إذ تعمل هذه الأنظمة المخيالية على فرض مجموعة من الحوافز والممنوعات التي تعيق عملية التطور وتحقيق ذاتية الفرد المادية والمعنوية. وفي وسائل الاتصال، فإن ظاهرة المراقبة الاجتماعية كانت محل دراسات أظهرت حضور الآليات الرسمية وغير الرسمية في المحافظة على الوضع القائم وجعل الجمهور المتلقي ساكنا ذاعنا ممثلا غير ناقد للوضع الذي يتواجد فيه. (عبد الرحمن عزي، 2013: 30)⁷. حيث تدفع تلك الوسائل الفرد إلى الرضا المزيف عن الوضع القائم، وحجتها في ذلك المحافظة

على الاستقرار والأمن القومي، ولكنها تضمّر أهدافا خفية وغير معلنة تصب مجتمعة في خدمة مصالحها وتحقيق مآربها.

كما تقوم هذه الوسائل بـ "منع الإنسان والمجتمع من إمكانية تغير الوضع، ويعني ذلك أنه في حال الارتباط بنظام مخيالي ما، وإذا كان هذا المخيال لا ينبثق من الخيال، فانه يمنع الإنسان من مواجهة الوضع ومن ثم تغييره، ويعكس اللجوء إلى المخيال والبقاء سجيناً في رحابه نوعاً من الهروب عما أفرزه الوضع، وتلك حالة مرضية تجعل الإنسان يتوهم بأنه تجاوز الوضع في الوقت الذي مازال يعيش تحت وطأته. (عبد الرحمن عزي، 2013: 30-31)⁸. أي أن النظام الإعلامي إذا لم يكن منبثقا من الخيال (أي شديد الصلة بعالم القيم) فانه يمنع الإنسان من مواجهة الوضع (ما هو كائن)، لأن الفرد الذي يعيش في أحضان هذا النظام العفن لا يفرق بين الخيال وبين الوضع، فهو يعيش في عالم واحد (الوضع القائم) -لأن النظام الإعلامي سوق له عالما واحدا فقط (الوضع القائم)- وبالتالي فإن الفرد لا يمكنه الهروب إلى عالم آخر، وإذا حاول الهروب من هذا الوضع فإنه سهرب إلى ملجأ افتراضي غير حقيقي ووهمي، وخير دليل على ذلك هو عالم الفايسبوك والتويتر وما شابهها من المخيلات الافتراضية التي أفرزتها الوسائل الإعلامية الحديثة.

في نفس السياق، تعمل وسائل الإعلام على "حجز الإنسان والمجتمع في قالب الأحادية والنمطية والاستهلاكية، فهذه الأنظمة المخيالية تعمل على ترسيخ قيم الامتثالية فتنتج نمطا من الإنسان يؤدي دورا ساكنا في المجتمع ... ويتضح أن وسائل الاتصال الحديثة تحمل قيما متماثلة ومتشابهة تقوم على النمطية والمعيارية بحيث يصبح إنسان هذه الوسائل يفكر بصفة متماثلة، ويسلك سلوكا شبه موحد... وتسعى هذه الوسائل إلى إيجاد مجتمع استهلاكي (عبد الرحمن عزي، 2013: 31)⁹. وعليه فان هذه الوسائل تهدف إلى تحقيق الربح والانغماس في الماديات حتى ولو كان ذلك على حساب تحويل المجتمع إلى مجتمع استهلاكي، والترويج للثقافة الشعبية الهابطة، والقضاء على التميز الاجتماعي، وتحييد الفرد وتسكينه.

ليس هذا فحسب، بل إنها تساهم في "دفع الإنسان والمجتمع إلى حافة التدمير الذاتي، ويتمثل ذلك في اللجوء إلى نظام مخيالي يقوم على الوهم الذي يبتعد عن الوضع من جهة، ولا يقترن بأي مخيال فرعي أو غير أساسي، ناهيك عن عدم

الارتكان إلى كل ماله علاقة بالخيال، كما نجد ذلك في عالم الإدمان على مادة أو نمط حياتي معين، الذي عادة ما ينتهي بصاحبه إلى الفناء (عبد الرحمن عزي، 2013: 31)¹⁰. ويظهر هذا التأثير السلبي في انتشار ظاهرة الإدمان على مواقع التواصل الاجتماعي بصفة خاصة، والإدمان على الانترنت بصفة عامة في صورة باثولوجية هروبا من الوضع القائم من جهة، وعدم إيجاد البديل الصحي (مخيال حقيقي) من جهة أخرى.

هذه السلبيات المذكورة أنفا هي نتيجة حتمية لابتعاد وسائل الإعلام عن القيم السامية والفضائل الراقية التي تهدف إلى بناء الفرد والمجتمع، فهي بذلك تعمل على تقليص دائرة الريادة وتقويض أبعادها، وفي المقابل تعمل على تكريس الرداءة ونشر الفساد الذي يستشري في النفوس حتى ينخرها، ويدب في المجتمعات حتى يهدمها، وسنرى في المحاور القادمة كيف تنهار عوالم الرداءة والفساد.

من الحتمية التاريخية إلى الحتمية الديالكتيكية.

يستحيل فهم تفكير كارل ماركس دون دراسة وفهم المنطق الهيجلي (Diane Elson, 1979 : 14¹¹ ، لأن كارل ماركس يعتبر أحد رواد النظرية الديالكتيكية فهي "نظرية أخذها ماركس من هيجل، وطبقها على دراسة المجتمع دراسة تاريخية مادية، إنها نظرية تتعلق بالجدل والصراع بين الفكرة والفكرة المضادة، إذ من الفكرة (thesis) تخرج الفكرة المضادة (anti-thesis). وبعد الصراع بين الفكرة ونقيضها تظهر الفكرة الثالثة (synthesis) عن طريق الديالكتيك، أي توحيد الصراع والتناقض بين الفكرتين من خلال الاعتراف بنصف صحة الفكرة الأولى ونصف صحة الفكرة المضادة، واشتقاق فكرة ثالثة جديدة بين الفكرتين المتناقضتين (إحسان محمد الحسن، 2010: 149)¹².

فلو أخذنا مثلا الصراع الطبقي في المجتمع العبودي لشاهدنا بأن الصراع يحدث بين طبقتين اجتماعيتين متخاصمتين هما: طبقة الأحرار الذين يشكلون الفكرة، وطبقة العبيد الذين يشكلون الفكرة المضادة. واستمرار الصراع بين الطبقتين أي بين الفكرة والفكرة المضادة يؤدي إلى سقوط المجتمع العبودي وظهور مجتمع جديد هو المجتمع الإقطاعي، الذي تحكمه الطبقة الإقطاعية التي تشكل

الفكرة الثالثة التي نشأت كنتاج حتي للصراع القائم بين طبقتي الأحرار والعبيد. غير أن الطبقة الإقطاعية كفكرة ثالثة لا تلبث أن تتحول إلى فكرة تخرج منها فكرة مضادة هي طبقة الفلاحين، والصراع ينشب بين الطبقتين والذي ينتهي بسقوط المجتمع الإقطاعي وظهور المجتمع الرأسمالي على أنقاضه، والذي تقوده الرأسمالية أو البرجوازية التي تشكل الفكرة والتي تخرج من أحشائها فكرة مضادة هي الطبقة العمالية. وهنا يظهر الصراع مرة ثانية ولكن بين طبقة أرباب العمل (الفكرة) والعمال (الفكرة المضادة)، وعندما يحدث الصراع بين أرباب العمل لا بد أن يسقط المجتمع الرأسمالي (إحسان محمد الحسن، 2010، 151-152)¹³.

تأسيسا على ما تقدم ذكره، فإن التحليل الديالكتيكي للرداء الإعلامية يمكن تفسيره عن طريق الصراع الذي يعتبره كوزر "نضالا وكفاحا حول القيم والمكانات ومصادر القوة (أحمد زايد، 2009: 152)¹⁴. ويحدث هذا الصراع بين الريادة الإعلامية (الفكرة)، والرداء الإعلامية (الفكرة المضادة)، وسيتولد عن هذا الصراع مزيج إعلامي متكون أساسا من الريادة والرداء (الفكرة الثالثة)، وبالتالي يتم تشكيل إمبراطوريتين متناقضتين ومتصارعتين في نفس الوقت.

وكلما توجهت الوسائل الإعلامية إلى الاعتماد على الرداء والانحطاط، فإنها تساهم مساهمة خطيرة في تعزيز إمبراطورية الرداء وتقوية شوكتها من جهة، ومن جهة أخرى تعمل على تضيق المجال، وتشديد الخناق أمام إمبراطورية الريادة، وإذا سارت هذه الوسائل وفق هذا المنحى فإنه -ووفقا للحتمية الديالكتيكية- ستكون الغلبة (ولا نقول النصر لأنه يحمل مدلولاً إيجابياً) في نهاية المطاف حليف إمبراطورية الرداء الإعلامية باعتبارها الفئة الأكثر عدداً على حد تعبير كارل ماركس، والذي يؤدي في الأخير إلى انهيار النظام الإعلامي القائم على الرداء والانحطاط.

أما التحليل المادي للرداء الإعلامية فيمكن إرجاعه إلى التكاليف حول تحقيق الربح وجمع الثروة "الذي ينطوي على التنافس الفردي من أجل اكتساب أو تحقيق منافع مادية على حساب النوازع الأدبية والخلقية، إذ أن العيش في مجتمع صناعي أو رأسمالي يحفز الفرد على الحصول على ثروة أو مال لكي يستطيع أن يعيش بمستوى معاشي جيد حتى لو أدى ذلك إلى انحراف سلوكه. (معن خليل العمر، 2008: 63)¹⁵.

والنظام الإعلامي القائم على روح النفعية والاستغلال التي تعني "مغالاة الأفراد بانتهاز فرص تكريس مصالحهم على حساب مصالح الآخرين (إبراهيم عثمان وقبس النوري، 2008: 231)¹⁶. والنظام الإعلامي بهذا الشكل يحمل بذور فَنائه بين طياته حين يصل الصراع إلى ذروته، والتكاليف إلى أقصاه، فحينها ينهار النظام لا محالة.

أما التحليل التاريخي للرداءة الإعلامية فيمكن تفسيره بانهيار الأنظمة الإعلامية التي قامت على الرداءة، وقد أثبت التاريخ ذلك ليس فقط في مجال الإعلام فحسب، وإنما في مختلف المجالات الأخرى، فلم ينجح نظام سياسي قام على الرداءة، ولم يفلح نظام اقتصادي حمل بين طياته الفساد، ولم تعمر مؤسسة أو شركة تأسست على الرداءة إلا وقرب أجلها، وضعف بنيانها، وإلى الإفلاس والانهيار كان مآلها.

الكيمياء التجريبية في مواجهة الرداءة الإعلامية

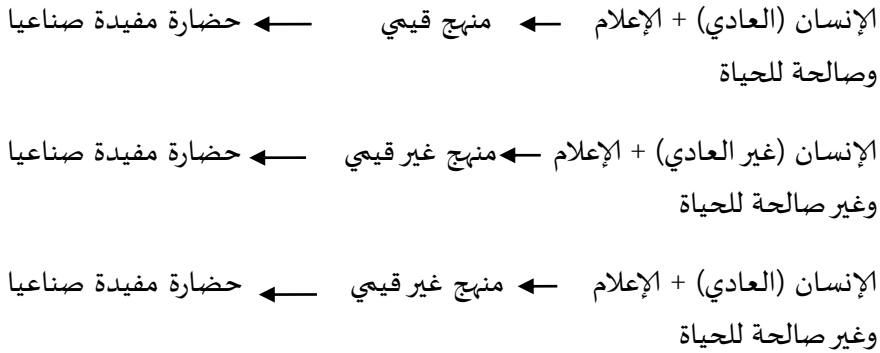
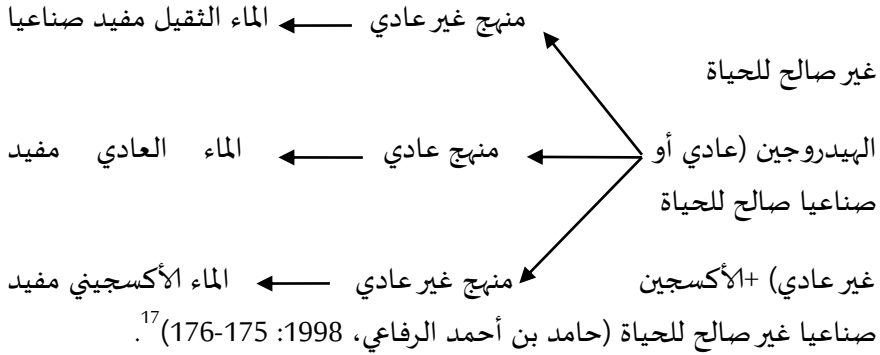
من المعلوم أن الماء يتكون كيميائياً من الاتحاد بين عنصري الهيدروجين والأكسجين وفق شروط محددة وطريقة منضبطة، ولنصطلح على عبارة (المنهج العادي) للتعبير عن الشروط العادية لتفاعل الهيدروجين والأكسجين لتكوين الماء وفق المعادلة التالية:

الهيدروجين (العادي) + الأكسجين ← منهج عادي ← الماء العادي (ماء الحياة)

الهيدروجين (غير العادي) + الأكسجين ← منهج غير عادي ← الماء الثقيل (غير صالح للحياة)

الهيدروجين (العادي) + الأكسجين ← منهج غير عادي ← الماء الأكسجيني (غير صالح للحياة)

لتسهيل المقارنة نجمع هذه المعادلات الثلاث في معادلة واحدة مركبة:



بمقارنة بسيطة نجد أن هذه التفاعلات تتأثر بالمنهج الإعلامي المستخدم، بالإضافة إلى طبيعة الإنسان الذي يمارس الإعلام ويستخدمه لبلوغ الحضارة المنشودة، فالإنسان العادي (المتشبع بالقيم الفاضلة والأخلاق الراقية) إذا استخدم الإعلام واستغله وفق منهج قيمي (يحترم أخلاقيات المهنة، يراعي المصلحة العامة، ويلتزم بالقيم) فإنه حتما سيبلغ الحضارة المنشودة.

أما الإنسان غير العادي (البعيد عن القيم والتربية والأخلاق والآداب) الذي يستخدم الإعلام وفق منهج غير قيمي (لا يتوفر على المعايير والمبادئ والأخلاقيات

اللازمة) فانه سيبلغ الحضارة ولكن أي حضارة؟، نعم إنها مفيدة صناعيا، تناطح السحاب تكنولوجيا، تصل إلى مختلف الكواكب والمذنبات... ولكنها حضارة غير صالحة للحياة، أخلاقها في الحضيض، قيمها في التراب، الحياة فيها غير آمنة، يكثر فيها القتل والهرج، وإدمان الخمر والمخدرات، وتنتشر فيها كل أنواع الرذائل وأصناف الجرائم.

كذلك الإنسان العادي الذي يستخدم الإعلام وفق منهج غير قيمي، فانه يسير في الطريق الخطأ، وبالتالي يستحيل عليه أن يصل إلى الهدف الصحيح، لأنه سائر في النهج الموصل إلى تحقيق حضارة مفيدة صناعيا، ولكنها غير صالحة للحياة الكريمة، من كثرة الإجرام، وشيوع الانحراف، وتميع الأخلاق، وتفسخ القيم... فهي حياة أقرب إلى البهيمية منها إلى الإنسانية.

شواهد ميدانية وأدلة واقعية على انهيار الرداء الإعلامية

في البداية نستعرض شواهد ساقها التاريخ وأثبتها الواقع، حيث تمثلت في انهيار أكبر الإمبراطوريات على وجه الأرض لما حادت عن القيم، وابتعدت عن المبادئ والأخلاق، وانغمست في الماديات، إنها الإمبراطورية السوفياتية التي انهارت بشهادة زعيمها الرئيس ميخائيل غورباتشوف في كتابه الشهير "البيروسترويكا مشيرا إلى أسباب الدمار التي تهدد كيان إمبراطوريتهم:

- يمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذنب هالي وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة، ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العلمية والتكنولوجية نجد نقصا واضحا في الكفاءة في استخدام المنجزات العلمية للحاجات الاقتصادية... ولسوء الحظ فليس هذا كل ما في الأمر، فقد بدأ تدهور تدريجي في القيم الإيديولوجية والمعنوية لقيمنا..وبدأ يسري في الأخلاقيات العامة، وزاد إدمان الخمر والمخدرات والجرائم.

- إن عصب طريقة التفكير الجديدة يتمثل في الاعتراف بأولوية القيم، ولكي نكون أكثر دقة فان الاهتمام بالقيم هو من أجل بقاء البشرية (حامد بن أحمد الرفاعي، 1998: 152-155)¹⁸.

ويواصل الدمار زحفه نحو الإمبراطورية الأمريكية، حيث تفتن له عقلاؤها وحكماؤها قبل فوات الأوان، وهذا ما نلمسه من خلال التصريح الذي جاء على لسان الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون -الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية- في كتابه الشهير الفرصة التاريخية حيث يقول: "إن أمريكا تتحرك الآن باتجاه لولبي نازل نحو الأمية العلمية والتكنولوجية، ليس لأن الأمريكيين فقدوا أهليتهم للعلوم، بل لأن نوع المعرفة التي يعطونها قد تخطاها الزمن... إن الجهل المذهل للكثيرين من أبناء هذا الجيل ناجم ليس عن قلة ذكاء الشباب، بل عن أن ذكاءهم لا يستغل، إنهم يعيشون في عالم الموسيقى الصاخبة التي تطلق في ضجيج يثقب السمع، والتلفزيون الذي يعرض صورا على الشاشة بسرعة لا يكاد يتبعها النظر، ومشاهد متتابعة تثير الجنس". (حامد بن أحمد الرفاعي، 1998: 160-161)¹⁹.

نعم صدقت أيها الرئيس، فهل يعقل أن "تنفق الولايات المتحدة الأمريكية 250 مليار دولار سنويا لترويج ثقافتها، وأنشأت محطة MTV للقيام بهذه المهمة على مستوى العالم، حيث تبث الصور الخليعة والموسيقى والفنون التي تدغدغ الإعلام (نصير بوعلي، 2007: 116)²⁰. وهل يعقل أن تخصص كل هذه الميزانية لنشر الجهل والأمية !!؟.

إن ما يعرضه الإعلام اليوم من ثقافة جماهيرية هابطة، وفكر شعبي ساقط، وإباحية ماجنة، ومسلسلات تحولت إلى معاول لهدم البيوت، وأفلام يندى لها الجبين، وقصات شعر تجعل الإنسان أقرب إلى الشيطان منه إلى الحيوان، وإنتاج يبتعد يوما بعد يوم عن القيم حيث سيلقى - وفقا للحتمية القيمية- نفس المصير الذي آلت إليه الإمبراطورية السوفييتية عندما حادت عن القيم.

ويواصل الرئيس الأمريكي صرخاته مناديا:

- "إن أغنى دولة في العالم لا يمكن أن تقبل أن يكون استهلاكها للمخدرات متساويا تقريبا لاستهلاك دول العالم مجتمعة على الرغم من أن عدد سكانها لا يتجاوز جزءا من عشرين من سكان العالم.

- إن أغنى دول العالم لا يمكن أن يكون لها أعلى معدل لارتكاب الجريمة في العالم، وأن يموت في أمريكا قتلا أثناء حرب الخليج عشرون ضعف الأمريكيين الذين قضاوا في هذه الحرب.

- إن أغنى دولة في العالم لا يمكن أن تقبل أن يكون فيها طبقة من الأشرار التي تجعل مدننا الكبيرة غير آمنة إلى درجة أن الحياة فيها صارت لا تطاق... الحاجة تدعو ليس إلى الدولارات بقدر ما تدعو إلى توجيه مجموعة من القيم والقواعد التي يقبلها المجتمع ويفرضها على نفسه. (حامد بن أحمد الرفاعي، 1998: 161-162).²¹

وتتأرجح الحضارة الأمريكية بين جرائم القتل وجرائم العقل في إحصائيات يندى لها الجبين، حيث يذكر الدكتور المشهداني أنه -وفي أمريكا تحديدا- "تحدث جريمة سرقة عادية كل 3 ثواني، جريمة سطو كل 14 ثانية، سرقة سيارة كل 24 ثانية، سرقة مقترنة بالعنف كل 60 ثانية، جريمة اغتصاب كل 6 ثواني، جريمة قتل كل 31 ثانية. (محمد أحمد المبيض، 2016).²²

نعم هذا هو حال الرأسمالية المادية، وهذه هي مخلفاتها و انعكاساتها، لأنه لا يمكن "أن تتواجد الرأسمالية بعيدا عن الاستغلالية، والهيمنة، والصراع المدمر حول الملكية، فهذه حقيقة أثبتها التاريخ.

²³ (Marielle Tremblay, Pierre-André Tremblay And Suzanne Tremblay, 2006 : 231).

الجدير بالذكر في هذا المقام أن ننبه إلى الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه الحضارة الغربية ألا وهو الاستثمار للإنسان، وليس الاستثمار في الإنسان، تلك هي الحقيقة المرة التي يتجرعها الغرب نتيجة الاستثمار للإنسان، فقد عملوا على توفير كل ما يحتاجه الإنسان من ماديات، فأنشئوا ناطحات السحاب، وشيدوا كبريات المستشفيات، و بنوا أكبر المصانع والشركات التي تفننت في إنتاج الألبسة والموضة، وتخصصت في إعداد أشهى المأكولات والمشروبات... لذلك انتبه -عزيزي القارئ- مسكن للإيواء، جرعة دواء، قطعة كساء، لقمة غذاء، وشربة ماء... هي احتياجات لا تكاد تخرج الإنسان من دائرة الحياة البهيمية، أما الإنسان فهو يحتاج إلى أن نستثمر فيه، وأن نبنيه من الداخل والخارج، ونغرس فيه المبادئ الراقية، والقيم المثلى، والآداب العامة، التي تجعله يتميز عن الحيوان.

حتى الحضارة الإسلامية لم تسلم من هذا الخطر الذي بدأ ينخر جسدها، فقد تناولت مجلة **العروة الوثقى** بالدراسة أسباب تخلف المسلمين وعجزهم، وفي مقدمتها ابتعادهم عن القيم السامية والفضائل الراقية، وانغماسهم في الرذائل التي "من طبيعتها التحلل والتفريق بين النفوس المتكيفة... وهي إذا فشلت في أمة نقضت بناءها الاجتماعي ونثرت أعضائها (محمد منير حجاب، 2002: 326-327)²⁴.

أما الوسائل الإعلامية التي تم توقيفها أو غلقها من صحف ومجلات وقنوات فحدث ولا حرج، والأمثلة كثيرة ومتنوعة بتنوع الرداء والانحطاط الذي وصلت إليه هذه الوسائل، وخير دليل على ذلك غلق قناة **mbc مصر** بسبب "تحرش محمد سعد بضييفة أولى حلقاته، ووقف برنامج وش السعد بعد الحلقة الأولى لأنه مسيء للغاية (مجهول، 2016)²⁵.

خاتمة

رسالة صريحة صحيحة ... نوجهها إلى مختلف الوسائل الإعلامية للحد من التمادي في الرداء الإعلامية -والعاقل من اعطى بغيره - ولينظروا إلى من سبقهم في هذا المجال، ماذا حققوا ؟ وماذا جنوا ؟، نعم حققوا نصف الحضارة (ولا ينبغي أن نقسم الحضارة مناصفة بين المادية والروحية)، ولنفرض أنهم حققوا ذلك، من بنوك ممتلئة، بنايات للسحاب ناطحة، أسلحة للعالم -إن أرادوا- مدمرة، تكنولوجيا متطورة، ثروة تنوء بالعصبة أولى القوة... وكل ذلك يصب في قالب المادية، وهنا لابد أن ننتبه: فالجانب المادي والمعنوي مثل الشرق والغرب، كلما اقتربت من الشرق فأنت تبتعد عن الغرب، وكلما اقتربت من الغرب فأنت تبتعد عن الشرق من حيث لا تدري، والعاقل من حاول الموازنة بين الجانب المادي والجانب المعنوي، فإذا أقام كل واحد منا هذه المعادلة السليمة في نفسه فإننا سنبلغ الحضارة في أسوأ معانها، وأرقى درجاتها. والواجب على وسائل الإعلام أن تكون وسيلة تساعد الفرد لبلوغ هذا الهدف وتحقيقه، وذلك عن طريق تكثيف الاستثمار في داخل الفرد وخارجه، وبناءه وتزويده بالقيم السامية التي تسرع من عملية ارتقائه إلى قمة الحضارة. وألا تكون هذه الوسائل معاول هدم تهوي بالفرد إلى مستنقعات التخلف، ودهاليز الانحطاط، وغياباب الرداء.

الهوامش:

1. - مسعود، جبران. (2005). الرائد: معجم الفائي في اللغة والإعلام، ط3. لبنان: دار العلم للملايين، ص: 722، بتصرف.
2. - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، الرازي. (2007). مختار الصحاح، ط1. الأردن: دار الفكر للنشر والتوزيع، ص: 254.
3. ماجد، الزويد (2006). الشباب والقيم في عالم متغير، ط1. الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، ص: 23.
4. - باديس، لونيس. (2012). نظرية الحتمية القيمة في الإعلام: نحو برادغيم إعلامي متميز، مجلة الدراسات الإعلامية القيمة المعاصرة، (4) 1، ص: 95.
5. - نصير، بوعلي. (2007). الإعلام والبعد الحضاري: دراسات في الإعلام والقيم، تقديم: عبد الرحمن عزي، ط1. الجزائر: دار الفجر للطباعة، ص: 94.
6. - عبد الرحمن، عزي. (2013). دراسات في نظرية الاتصال: نحو فكر إعلامي متميز، سلسلة كتب المستقبل العربي، 28، ط3. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص: 30.
7. - نفس المكان.
8. المرجع نفسه، ص: 30-31.
9. المرجع نفسه، ص: 31.
10. نفس المكان.
11. - Diane, Elson. (1979). Value : **The Representation of Labour in Capitalism**, London : CSE Books, P : 14.
12. - إحسان محمد، الحسن. (2010). النظريات الاجتماعية المتقدمة: دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة، ط2. الأردن: دار وائل للنشر والتوزيع، ص: 149.
13. إحسان محمد الحسن، مرجع سابق، ص: 151-152.
14. - أحمد، زايد. (2009). علم الاجتماع: النظريات الكلاسيكية والنقدية، ط2. مصر: نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 152.
15. - معن خليل، العمر. (2008). علم المشكلات الاجتماعية، ط1. الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، ص: 63.
16. - إبراهيم، عثمان. و قيس، النوري (2008). التغير الاجتماعي، د.ط. القاهرة: الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، ص: 231.

17. - حامد بن أحمد، الرفاعي. (1998). الإسلام والنظام العالمي الجديد، مراجعة: محمد الأسعد، ط3. مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ص: 175-176.
18. - المرجع نفسه، ص: 152-155.
19. المرجع نفسه، ص: 160-161.
20. - نصير بوعللي، مرجع سابق، ص: 116.
21. - حامد بن أحمد الرفاعي، مرجع سابق، ص: 161-162.
22. - محمد أحمد المبيض: مستوى الجريمة في المجتمع الغربي (صياغة الإنسان 4):
http:// : rasaelnoor.blogspot.com. (20/07/2016). -
23. -Marielle, Tremblay. Pierre-André, Tremblay. And Suzanne, Tremblay. (2006). Le Développement Social : Un Enjeu Pour l Economie Sociale, Québec, Canada : Presses de l Université Du Québec, P : 231.
24. - محمد منير، حجاب. (2002). الإعلام الإسلامي: المبادئ، النظرية، والتطبيق، ط1. القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ص: 326-327.
25. - مجهول، غلق قناة **mbc** مصر:
-http// : www. Motaba3at.com/news-today/51765. (19/07/2016).